المجلد28/العـدد: 1 (2023)، ص 503– 522

Cahiers de Traduction

دراسة في موقف أهل السنة وغلاة السلفية من ترجمة الفلسفة والعلوم خلال العصور الوسطى وتبعاته على الفكر الإسلامي

Sunni and Salafi Fundamentalists Backlash against Science and Translation in the Middle Ages and its Impact on Muslim Thought

أمينة كواتي[1]

[1] معهد الترجمة– جامعة الجزائر 2 (الجزائر)، amina.kouati@univ-alger2.dz

تاريخ الاستلام: 2023/03/13 تاريخ القبول: 2023/05/23 تاريخ القبول: 2023/05/27

ملخص:

يعتبر العصر العباسي عصر التنوير وعصر ثورة علمية وفكرية غيرت وجه التاريخ. إذ ازدهرت كل البلاد الإسلامية بفضل الانفتاح على الآخر، وبفضل برامج رعاية الخلفاء والأسر النبيلة للعلوم، وتمويل وتشجيع مشاريع الترجمة، التي نقلت عصارة ما جادت به الحضارات القديمة، كالحضارة الفارسية والهندية واليونانية من علوم وفنون. غير أنّ العصور العباسية المتأخرة، شهدت اكتساح أهل السنة ومتطرفي السلفية للمشهد الفكري، وقد أدى ذلك إلى تراجع في طلب العلوم والفلسفة، نتيجة تكفير المشتغلين بها، مما أدى إلى تغيّر في التصور الجمعي لطريقة البناء الحضاري، وهو ما نلمس أثره لغاية اليوم.

ونحن إنما نسعى من خلال بحثنا هذا تسليط الضوء على دور الترجمة في النهوض الحضاري، ومدى أهمية التنوع الثقافي والتسامح مع الآخر والذي يعدّ أهم روافد الغنى المعرفي، وسلطنا الضوء على وقائع مفصلية في نهاية العصر العباسي أدت إلى تراجع العلوم عند العرب نتيجة ردة فعل الغلاة من أهل السلف التي شكلت أولى تجليات أزمة العقل العربي.

كلمات مفتاحية: الترجمة خلال العصر العباسي، ترجمة العلوم والفلسفة، موقف أهل السلف من العلوم والترجمة.

Abstract:

The Abbasid Era is considered the Age of Enlightenment of Islam as well as an intellectual revolution that changed the course of history. Many large cities

المؤلف المرسل: أمينة كواتي

flourished across the empire thanks to the early Caliphs who championed the cause of knowledge, through mega translation projects of science, astronomy, mathematics, and philosophy from Greek, Pahlavi and Hindu sources, as both Muslim and non-Muslim scholars sought to translate and gather millennial knowledge into Arabic.

Unfortunately the late Abbasid Period was marked by the rise of many Sunni and Salafi fundamentalists, who saw in transferred science and philosophy from ancient texts a corruption of the Muslim mind. As a result a huge number of Muslim scholars were excommunicated sometimes tortured, banished or even murdered, which led to reversing every tendency towards critical thinking and scientific method.

1. مقدمة:

إنّ العصر الذهبي للمسلمين في بغداد، وما برع فيه هؤلاء من علوم، وما بلغوه من الحكمة، لم يكن من محظ الصدفة، فتوفر عدد من الظروف التاريخية والجغرافية والفكرية هي التي سمحت ببناء هذا الصرح الحضاري العظيم. وإنّ فضل الحضارة الإسلامية، في كل المجالات الفكرية من فلك وطبيعيات وكيمياء ورياضيات وفلسفة، هو أساس الحضارة الغربية اليوم، ومن نافل القول أنّ الترجمة لعبت في كل زمان ومكان دور المحفز، وهي دون شك العماد الذي يرتكن إليه أي مشروع حضاري. غير أنّ هذه الفترة لم تستمر طويلا، فبعد قرون من التفتح والازدهار الفكري والعلمي وظهور أسماء لامعة في كل مجالات البحث، تراجعت الحضارة العباسية القهقرى لغاية سقوط بغداد سنة 1248م. ويحق لنا التساؤل في هذا السياق: ما الذي حدث بين العصر العباسي الأول–العصر الذهبي للمسلمين– وسقوط بغداد، حتى يفقد المسلمون هذه المكانة العظيمة وهذا الفضل؟ للإجابة على هذا التساؤل ارتأينا أن نتبنى وجهة نظر فكرية بحتة، بعيدا عن العوامل والمؤثرات التاريخية والصراعات المذهبية والسياسية التي أدّت إلى السقوط الفعلي لدولة بني العباس، ونحن نرى أنّ التيار السلفي وأهل الحديث قد قويت شوكتهم ابتداء من عهد المتوكل، فكان أن كفّروا المشتغلين بالعلم والفلسفة، بعد أن تطرق بعض الفلاسفة كابن سينا وابن رشد إلى أزلية الكون، وإنكار بعث الأجساد والقول ببعث الأرواح، والخوض في مبدأ السببية التي تقول بوجود علاقة حتمية بين الأسباب والمسببات، وهو ما أنكره الإمام أبو حامد الغزالي لما في ذلك من انعكاسات على السردية الدينية للمعجزات النبوية، وساد مذذاك، الخطاب المتطرف الرافض لإعمال العقل، فتراجعت العلوم وساد المنطق التكفيري الذي كبح كل أشكال الازدهار العلمي والفكري.

2. السياق التاريخي للنهضة الفكرية خلال العهد العباسي وبواعثها:

تعد حركة الترجمة التي بدأت على احتشام أواسط الحقبه الأمويه على يد خالد بن يزيد بن معاويه 668-704م الملقّب بحكيم آل مروان، ونمت وازدهرت طيله حكم بني العباس حركه تاريخية كبرى بحق. فهي سلسلة من الأحداث والعلاقات المعقدة التي لم تبدأ ولم تنته بنصوص معينة، إذ توالت على أكثر من قرنين من الجهود المبرمجة والاجتهادات الفردية، ومئات الأعمال الفردية والجماعية من أربع لغات كبرى على الأقل: السريانية واليونانية والبهلوية والسنسكريتيه، وكذا جمع المخطوطات وبناء المكتبات والمراصد، كل ذلك برعاية مباشره من قبل الحكام والنبلاء والأغنياء.

ولقد كان لاتساع رقعه الدوله العباسيه، التي امتدت على طول أقاليم واسعه جدا وصلت إلى الهند ونهر السند شرقا، وضمّت كلاّ من بلاد العراق وفارس والأحواز وطبرستان وجرجان وأذربيجان، وأقاليم الغرب التي ضمت كلا من بلاد الشام وبحر فارس وبحر الروم والجزيره العربيه وديار المغرب بإفريقية، كان لهذا الاتساع الجغرافي انعكاس مباشر على الحياة الثقافية والفكرية خلال هذه الفترة المتميزة من تاريخ المسلمين. فضلا عن ذلك فإنّ العباسيين وحاشيتهم من الشرق الفارسي، حيث وجدت الثقافة العالمية لقرون عدة، وكان ذلك حافزإضافيا أدى إلى ظهور الازدهار الفكري في أواخر القرن الثامن.

لقد كان للخلفاء العباسيين رؤية عالمية أكثر شمولا، تختلف اختلافا تاما عن النمط الأموي الذي كان يتميز بالبداوة والعقلية القبلية. والواقع أنّ الرؤية العباسية كانت مستمدة من الرؤية العالميه التي تبناها الساسانيون ملوك الفرس، ومن أبرزهم أنوشروان في جنديسابور. كان التصور العباسي يستند إلى المزج بين القداسة الإلهية مدعومة بالتفوق العسكري، والتراكم العلمي والمعرفي. في مركز هذه الرؤية تقع "مدينة سماوية" تغمرها المعرفة الدنيوية والحكمة الروحية والنظام المتناسق (مونغومري: 2010: 133).

كان المنصور أول خليفة عباسي يتحقق له ذلك، فلم يكن المجتمع العباسي الأول منسجما، إذ أصبح بعد الإطاحه بالأمويين مفعما بالصراعات الناجمة عن ولاءات مختلفة ومقتلّبة. واجه المنصور هذه التحديات عن طريق بناء عاصمة جديدة متألقة تنأى عن الماضي المضطرب وترنو إلى السماء. فعمل على إدماج العناصر غير العربية ممن استظلوا بمظلّة الإسلام والعربية وتمّ احتواؤهم ضمن إطار الدوله العالميه الجديدة بعيدا عن عصبيه بني أمية وحسّهم القبلّي الذي كان يزدري كل ماهو أعجمي.

وشهد العصر العباسي حركية فكرية لم يسبق لها مثيل في التاريخ الإسلامي، فازدهرت الآداب والعلوم والفنون، وظهرت المذاهب الفقهية الأربعة وعلى رأسهم الإمام الأعظم فقيه الملّة الإمام أبو حنيفة النعمان، وفقيه المدينة الإمام مالك بن أنس، والإمام الشافعي والإمام الممتحن أحمد بن حنبل، وظهرت في الفقه الإسلامي مدرستان علميتان هما مدرسه "أهل الرأي" في العراق ومدرسة "أهل الحديث" في المدينة. وحفل هذا العصر بأئمة علوم القرآن واللغة فكان منهم سيبويه والخليل بن أحمد والإمام الفراء، وظهرت في علوم اللغة مدرستان هما مدرسة "الكوفة" ومدرسة "البصرة".كل ذلك بفضل انتقال العلوم من مرحلة التلقين الشفوي إلى مرحلة التدوين والتوثيق. ولقد كان لوفرة الورق الأثر الأكبر في انتشار الآداب والعلوم، فعند وصول العرب المسلمين إلى سمرقند وكانت قد فتحت على يد قتيبة بن مسلم الباهلي (93هـ - 712م) يذكر أن القائد زياد بن صالح الحرثي أسر ما يقارب عشرين ألفا من المحاربين الصينيين في معركة تالاس، وقرّر المسلمون حينها بيعهم، لكن اتضح أن من بينهم من كان يعمل في صناعة الورق في سمرقند، فاستغل المسلمون ذلك وجنوا منه فائدة عظيمة وعن طريقهم شهدت العاصمة بغداد تأسيس مصانع الورق (فارس: 2017: 247).

كما شهدت هذه الفترة سلسلة معقدة جدا من التفاعلات التي تصارعت فيها مجموعات فكرية ثقافية وسعت إلى الهيمنة على المشهد الثقافي والهيمنة على عقول الناس وقلوبهم (Sabra : 1987 : 228)، شملت هذه المجموعات –على الأقل– ما يلي: 1– "المتصوفه" حديثو النشأة 2– "أهل الحديث" الذين يعلمون الإيمان بالاعتماد أساسا على أحاديث الرسول 3– "الفقهاء" المؤمنون بأنّ الشريعة هي أساس المجتمع 4– "المتكلّمون" ويشكّلون سلسلة من المدارس الدينية المتخصصة في علم الكلام 5– "المعتزلة" وهم مجموعه يرجحون قوة العقل كوسيلة لفهم الكون والخالق بصورة عقليه ومنطقية. وقد كانت العلاقة بين هذه المجموعات تارة تصادمية وتارة تصالحية وأحيانا متشابكة، وأكثر أشكال العداء استمرارية ودموية هو ذلك الذي تواجه فيه أهل الحديث والسلف والمعتزلة. ابتداء من هذه النقطة المحورية في التاريخ الإسلامي سنوضح كيف أثّر هذا الصراع الحاسم، وكيف أثّرت العقليه السلفية وتغلّبت في نهاية المطاف على الاندفاع الثقافي والفيض العلمي في العالم الإسلامي.

3. حركة الترجمة في العصر العباسي:

اجتمعت في فترة الحكم العباسي ظروف شجعت وسهلت حركة النصوص والمخطوطات من وإلى العاصمة بغداد، لا سيّما تطوير نظام الجباية وإنشاء مؤسسات في الدولة ساهمت في شقّ الطرقات وتحسين تلك الموجودة وتسهيل الانتقال بين المدن الكبرى والربط بين مختلف أطراف المملكة. كما تمّ تحديث خدمة البريد في

عهد هارون الرشيد، ورسمت الخرائط والجداول التي توضّح المسافات بين مختلف المدن. هذا ولعبت الرحلات العلمية التي كانت تقود البحاثة إلى أكبر المراكز الفكرية في الإمبراطورية دورا مفصليا في نقل العلوم وانتقالها بين الأقاليم، حيث لم تكن المدارس تقدّم التعليم العالي، بل كان يقدّمه عدد من العلماء الأجلاء كانوا مبعثرين في أنحاء الإمبراطورية.

قدّمت هذه الحركية الفكرية دفعا لحركة الترجمة، ويمكن أن نقول بثقة تامّة أنّ الفضل كل الفضل يعود إلى المسلمين خلال العصر العباسي (750م-1258م) في إطلاق شرارة أول حركة ترجمة كبرى عرفها التاريخ الإنساني، وقد بدأت بوادر هذه الحركة كما سبق وذكرنا، خلال العصر الأموي، خلال فترة حكم خالد بن يزيد بن معاوية، وبلغت أوجها خلال العصر العباسي الأول، فأمر "المنصور" الذي تولى الخلافة بين (754م-775م) ويعدّ الخليفة العباسي الثاني، أمر بترجمة عدد من الكتب وأسس غرفة للترجمة. و"الرشيد" الذي تولى الخلافة ما بين (786م-809م) شجّع المترجمين وكان من رعاة مشاريع الترجمة، كما أنه قام بتوسيع غرفة الترجمة التي أسّسها "المنصور". ولكن "المأمون" (818م-833م) الذي عرف بشغفه بالعلم وإجلاله للعلماء، كان صاحب الفضل الأكبر بإنشائه لأكبر مكتبة وهيأة عملية وأكاديمية تعنى بالعلم والترجمة في ذلك الوقت وسميت "بيت الحكمة" (Baker :2009 :331).

وتقول المصادر التاريخية أنّ المترجمين قد استخدموا كمعلّمين وأطباء ومستشارين في البلاط العباسي، وكانت تدفع لهم أحيانا مبالغ طائلة مقابل خدماتهم، وقد ورد في الفهرست عن الإخوة بني موسى اللذين كانوا راعين هامين من رعاة البلاط وعلماء نشيطين جدا قدموا إسهامات هامة في الرياضيات والهندسة والفلك، وكانوا يدفعون إلى حُنين وغيره من المترجمين خمسمائة دينار ذهبي شهريا (أي حوالي وزنه ذهبا) لقاء عملهم في الترجمة فقط. ولقد ذاع صيت المترجمين ولمع نجمهم، بفضل منحهم مهام إنشاء المكتبات وتزويدها بالمخطوطات، وإقامة المراصد الفلكية، ومراجعة التقويم الزمني والفلكي، فكانوا يعتبرون حكماء عصرهم يستشارون ويُسألون في أهم المسائل.

لا بدّ أن نذكر في هذا السياق نقطة هامة وردت في (مونغمري: 2010: 158) تتعلق بمدى حرية المترجمين في اختيار النصوص الموجهة للترجمة، إذ اتّضح أنّ مشاريع الترجمة كانت في المراحل الأولى بأمر من الحكام والبلاط، فعلم التنجيم بما له من قدرة على التنبؤ بالانتصارات والهزائم العسكرية وطول عمر الحكّام ومآل دولة

الخلافة، وعلم الكيمياء بما فيه من وعود بالثروة والسيطرة على أسرار الطبيعة، والطب وقدرته على تخفيف الآلام وتقوية الفحولة: كل هذه الحقول المعرفية كانت تعد بتوطيد الحكم وتحقيق المنفعة الفورية. إلاّ أنّ الأمر تغيّر بتسلم المنصور لعرش الخلافة. إذ بدأ اهتمام أكثر تنظيما وتنسيقا بالمعرفة لدى الشعوب الأخرى، ومُنح المترجمون حرية أكثر إزاء النصوص الموجهة للترجمة، باعبارهم خبراء وهم على دراية بمكنونات المخطوطات القديمة والنصوص التي تتضمن حكمة القدماء، ووصلت هذه النزعة ذروتها في عصر المأمون منتصف القرن التاسع الميلادي، وكذا بفضل الرعاة الأثرياء كالإخوة بني موسى، الذين كانوا يرسلون بعثات من المترجمين، بمن فيهم حنين بن اسحاق وثابت بن قرّة لجمع المخطوطات من المكتبات القديمة المتبقية.

وحسبما ورد في (Rosenthal: 2003:8) فإنّ مترجمين مثل حنين، بسبب خلفيتهم النسطورية، كانوا يفضّلون النصوص الموجودة في مناهج المدارس اليونانية القديمة، والنصوص المعتمدة في أكاديمية جنديسابور. بينما كانت الترجمات العربية موجهة أساسا إلى الخلفاء والمسؤولين في البلاط ورجال الدين المثقفين والعامة من المثقفين.

يقسّم (Peters :1968 :134) الفترات المختلفة للترجمة خلال العصر العباسي إلى ثلاث فترات:

- الفترة الأولى تمتد من أواخر القرن الثامن خلال عهد المنصور (775م-775م) والرشيد (786م-809م) ووصلت ذروتها في العقود الأولى من القرن التاسع خلال عهد المأمون (813م-833م) الأكثر رعاية لنشاط الترجمة بين الحكام العباسيين. خلال هذه الفترة كانت النصوص الهندية والفارسية هامة جدا في البداية، ولكن سرعان ما طغت عليها النصوص السريانية.

- الفترة الثانية التي تمتد من منتصف القرن التاسع إلى القرن العاشر، ظهر ميل واضح إلى العودة إلى النصوص اليونانية "الأصلية" والتي خضعت لقرون طويلة من النسخ، إذ ترجمت أوّلا إلى السريانية ثم إلى العربية وذلك بغرض تصحيح وتنقيح الترجمات الموجودة.

- الفترة الثالثة والتي تميزت بجهود مبعثرة أقل تنظيما فتمتد من القرن الحادي عشر إلى القرن الثالث عشر تقريبا، وتميزت هذه الفترة بترجمة أعمال مختارة وإعادة جمعها في صيغ نصية جديدة، وكذا ترجمة بعض النصوص الكبرى أو أجزاء منها، ويكتسي الطور الأول والثاني أهمية كبيرة من الناحية التاريخية، حيث أفرز الطور الأول ترجمات مهمّة نقحها وصحّحها مترجمو الطور الثاني.

وحسبما ورد في العديد من المصادر التاريخية فإنّ العنصر العربي، بالرغم من تميز علمائه في بعض العلوم كالعلوم الشرعية والفقهية وعلوم اللغة، فإنّ العلماء الذين لمع نجمهم في مجال الترجمة والمجالات الأخرى كانوا في غالبيتهم من الفرس واليهود ومن بلاد الشام (Baker : 2011 :332) (Montgomrey :2018 :316). تقول منى بيكر في موسوعتها بأنّ أوّل مؤلّف علمي تمّت ترجمته من السريانية إلى العربية خلال هذه الفترة كان عبارة عن بحث في الطب ترجمه الطبيب اليهودي ذي الأصول الفارسيه"ماسرجويه البصري"، علما أنّ البحث الأصلي صنّفه القسّ أهرون السكندري باللغة اليونانية. ولا تعدّ هذه حالة استثنائية، فالكثير من الترجمات والنصوص الأصلية اختلطت ببعضها البعض، خلال مختلف الفترات التاريخية، لتشكل تراثا إنسانيا مشتركا، لم نعد نفرق فيه بين الأصول والترجمات. فيرجع أصل "ألف ليلة وليلة" مثلا إلى مؤلف فارسي قديم خاصة قصة الإطار، التي تم استخلاصها على الأرجح من العمل البهلوي الفارسي «ألف خرافة» (بالفارسية: هزار أفسان) والتي بدورها اعتمدت جزئياً على الأدب الهندي. بالمقابل هناك من يقول أنّ أصل هذه الروايات بابلي[1].

وبفضل الرعاية المتواصلة للفنون والعلوم لا سيّما خلال الفترة العباسية الأولى، غدت اللغة العربية هي اللغة المتداولة في المجالين الديني والدنيوي بحلول أواخر القرن الثامن، وقد عززت الظروف السياسية والتجارية هذا الانتشار للغة العربية التي صارت لغة الدولة ولغة السلطة المدنية والضرائب والتجارة، وحلّت سريعا محلّ اليونانية والسريانية في الشرق الأدنى (مونغمري: 2010: 147).

أمّا عن المواضيع التي اهتم المترجمون بترجمتها خلال هذه الفترة فقد تراوحت ما بين الرياضيات والكيمياء وعلم الفلك والمنطق والسياسة. وتجدر الإشارة إلى أنّ الاهتمام بالآداب كان ضئيلا جدا لسببين أولها: تناقض تعاليم الإسلام مع الكثير من الأساطير التي وردت في النصوص الأجنبية، وثانيهما: ثراء الحقبة العباسية من الناحية الأدبية وهيمنتها على أصقاع المعمورة (332: 2009: Baker).

ومن المواضيع الأساسية التي اهتم المترجمون بترجمتها نذكر نصوص علم الفلك والتنجيم، إذ يقول (King :1996 :147) أنّ أهم العلوم التي ازدهرت خلال العصر العباسي ترجمة وبحثا هو لا شك علم الفلك، حيث أنشئت عشرات المراصد الفلكية لمتابعة حركة النجوم والكواكب، وقد عني هذا العلم باهتمام خاص من قبل بني العباس ذوي الخلفية الفارسية، فترجمت عديد النصوص في هذا المجال خلال حكم المنصور، الخليفة

العباسي الثاني، الذي سار على خطى الملوك الفرس الساسانيين والذين عرف عنهم تحمسهم الشديد للتنجيم والطب، وكذا رعايتهم للفنانين والعلماء والباحثين، فكان بلاط الإمبراطورية الساسانية حاضنا لشتى أنواع العلوم والفنون.

ولعلّ أهم نص تمّت ترجمته في علم الفلك إلى العربية هو "المجسطي" Almagest (أو الدليل الفلكي العظيم) لبطليموس، وحسب (King :1996 :148) فإنّ عدد هذه الترجمات خلال تلك الفترة قد بلغ خمس ترجمات، أقدمها كانت النسخة السريانية بقي صاحبها وتاريخها مجهولين. وأوّل ترجمة عربية تمّت سنة 800 ميلادية تقريبا وهي أيضا مجهولة المترجم. معظم هذه الترجمات كانت موجودة فعليا خلال القرن الثاني عشر الميلادي حيث ذكرها ابن الصلاح (1181م-1245م) في نقده وتصحيحه لفهرس النجوم لبطيموس، وفي سنة 827م-828م ظهرت ترجمة ثانية قام بها الحجاج بن مطر، وبعد ذلك ترجم حنين بن إسحاق نسخة من المجسطي إلى العربية ملخصة تلخيصا رائعا، أما النسخة الأخيرة التي أنتجت خلال العصور الوسطى لم تكن ترجمة بحدّ ذاتها، بل كانت ملخصا أنجزه عالم الفلك والرياضيات نصير الدين الطوسي (1201م- 1274م) الذي استعمل نسخة ثابت بن قرّة المصحِّحة لنسخة حنين بن إسحاق (King :1996 :148).

ولقد أثرت كل هذه الترجمات الجدالات والسّجالات الفلكية خلال تلك الفترة، ومن بين الثمار الفكرية التي أتت بها نذكر كتاب "الشكوك على بطليموس" لابن الهيثم. والجدير بالذكر أنّ كل هذه الترجمات لم تكتف بنقل النص بل اهتمّت أيضا بتصحيحه وتعديله وإثرائه والتعقيب عليه.

ومن المجالات التي اهتم المترجمون بنقلها خلال العصر العباسي الأول مجال الطب، وتذكر الأخبار أنّ الخليفة أبو جعفر المنصور كان من الخلفاء الذين اهتموا بنقل كتب الطب، ذلك أنه أصيب في أواخر أيامه بمرض في معدته فانقطعت شهيته، وكان الأطباء القائمون على خدمته يعالجونه ولا يجدي علاجهم نفعا، وقال لهم: "هل تعرفون من الأطباء في سائر البلدان ماهرا؟ " فقالوا: ليس في وقتنا هذا أحد يشبه جورجيس رئيس أطباء جنديسابور" (ابن أبي أصيبعة: 1997: 343) كان طبيبا حاذقا وله من الذكاء والفضل جانب عظيم، فأبرأ الخليفة واستمر جورجيس بن بختيشوع (ت 771م) في خدمته لسنوات بعد ذلك، وأثناء مكوثه في بغداد كلّفه المنصور بتعريب كتب كثيرة في الطب عن الفارسية والعربية، فلما رأى وثوق المنصور به نقل كتبا طبية من اليونانية إلى العربية. ومن ثمّ فقد أجمع المؤرخون على أنّ دخول جورجيس بن بختيشوع إلى بغداد بطلب من الخليفة المنصور، كان شارة الانطلاق لفترة شهدت ازدهار العلوم الطبية في بلاد المسلمين.

ولا يمكننا الحديث عن ترجمة العلوم الطبية خلال العصر العباسي دون ذكر يوحنا بن ماسويه (ت 857م) وهو سرياني من أعلام مدرسة جنديسابور الطبّية، وحظي بمكان مكين لدى الرشيد، فقد رووا أنه "ولَّى يوحنا بن ماسوية ترجمة الكتب الطبية القديمة لما وجدها بأنقرة وعمورية، وسائر بلاد الروم حين افتتحها المسلمون وسبوا سبيها ووضعه أمينًا على الترجمة، ورتب له كُتَّابًا حُذَّاقًا يكتبون بين يديه" (القفطي:2005: 131 وما يليها)، وخدم الرشيد والأمين والمأمون بعدهم من الخلفاء إلى أيام المتوكل. إنّ يوحنا –بحكم تخصصه في الطب- اهتم بترجمة الكتب الطبية اليونانية، هذا فضلاً عن أنه كان المشرف العام على نشاط الترجمة في عصر الرشيد، والواضح أن يوحنا كان من أبرز أطباء عصره، واستطاع أن يحقق ثروةً طائلة من مهنته، وكان أستاذا للطبيب المشهور، شيخ المترجمين حنين بن اسحاق (القفطي: 2005). وقد استطاع حنين كما قال (مايرهوف :1946: 58 وما يليها) أن يجعل جالينوس "سيد الطب المطلق في العصور الوسطى".

وهكذا أصبحت بغداد مركزا للطب والعلم والترجمة، وبذلك انتقل أيضا مركز التعليم الطبي من الإسكندرية في عهد عمر بن عبد العزيز إلى أنطاكيا ومنها إلى حران إلى جنديسابور إلى بغداد التي أصبحت من أهم مراكز الإشعاع والعلم آنذاك. وقد ورد عن عامر النجار في تحقيقه لمخطوطة ابن أبي أصيبعة (1997: 218) أنه بحلول عام 900م كانت كتب أبوقراط وجالينوس مترجمة إلى العربية، وقد ترجم أهم ما تبقى من مصنفاته كـ "كتاب الفصول" Aphorisms، وكتاب "الأهوية والمياه والبلدان" On Airs, Waters and Places، ومصنف الأمراض الحادة Regimen in Acute Deseases، وكتاب الأمراض الوافدة On Epidemics وغيرها... والحقّ أن الكتب اليونانية شملت معظم فروع الطب والمعرفة أنذاك. وقد اهتم العرب بترجمة مؤلفات جالينوس اهتماما كبيرا، وكانت مصنفاته في الطب العمد الرئيسية عند الرازي وابن سينا وابن النفيس. وتجدر الإشارة في هذا السياق إلى عدة نقاط نلخصها فيما يلي:

أولا: أنّ هذه الترجمات إلى العربية من مصادر مختلفة، كانت حجر الأساس لحركة واسعة حوّلت الإسلام إلى ثقافة نصية نشطة وبالغة الثراء منخرطة ليس فقط في الدراسة والتعليم، بل في الكتابة أيضا، خصوصا فيما يخص كتابة المخطوطات في شتى العلوم، وتجميع هذه الأعمال في مكتبات ضخمة. وبفضل الترجمة دخلت آلاف النصوص الجديدة إلى العربية في القرنين الثامن والتاسع، حيث زاد الطلب على السلع الفكرية وانتشرت القراءة والكتابة وراجت سوق الكتب والمخطوطات بين الطبقة الأرستقراطية.

ثانيا: تمّت أغلب الترجمات إلى العربية للمصنفات العلمية عن طريق لغات وسيطة، السريانية بالأساس، والبهلوية بشكل ثانوي، مع العلم أن أغلب النصوص البهلوية كانت مترجمة بدورها عن نصوص أقدم يونانية وهندية في أغلبها. ولا بدّ هنا من توضيح أمر في غاية الأهمية، فأحيانا كانت تتم الترجمة عن النسخة السريانية لغياب الأصل اليوناني، ولكن في أحيان كثيرة أخرى كانت تتم الترجمة عن السريانية مع وجود الأصل اليوناني، إذ كان هناك استعمال واع للسريانية كلغة وسيطة، وهذان المنهجان في الترجمة مختلفان جدا إجرائيا ومعرفيا، فالأصل اليوناني المفقود في الحالة الأولى موجود ومتاح في الحالة الثانية بوصفه موضوعا محوريا، ومصدرا مستمرا للإحالات (مونغومري: 2010: 154). إذ أدرك المترجمون كحنين بن إسحاق وغيره الوضعية المثالية للغة السريانية، التي تأثرت بعمق باللغة اليونانية الكلاسيكية والتي أثّرت بدورها بشكل مباشر على اللغة العربية وشكلها أثناء تحولها من لغة منطوقة محصورة جغرافيا إلى طور التدوين والكتابة والعالمية.

ثالثا: وهي نقطة وردت في الفقرات السابقة وهي أنّ أغلب المشتغلين بالترجمة في تلك الفترة لم يكونوا مسلمين ولا عربا بل كانوا رجال دين نسطوريين وبدرجة أقل يعقوبيين.

رابعا: كان التأثير الفارسي على الثقافة العربية جليا واضحا لا سيما في مجال الأدب، حيث كان الأدب الفارسي أقرب إلى ذوق العرب وأحاسيسهم ومعتقداتهم من الأدب اليوناني، وخير مثال على ذلك ترجمات ابن المقفع عن البهلوية لكليلة ودمنة ورسالتي "الأدب الكبير" و"الأدب الصغير" (ضيف: 1983: 134 وما يليها). أما عن التأثير اليوناني فقد كان واضحا في العلوم العقلية الفلسفية وهذا لاهتمام اليونانيين بالعقل والتفكير أكثر من اهتمامهم بغيرها من الأمور، فنقل المسلمون عنهم العلوم الفلسفية وعلوم المنطق عن أفلاطون وأرسطو، ونقلوا عن جالينوس وأبوقراط علوم الطب. على ألاّ نغفل مدى تأثر الحضارة الإسلامية في ذلك الوقت بالنتاج العلمي والفكري الذي وصلت إليه الهند، فبعد وصول الإسلام إلى الهند انتقل جزء كبير من العلوم الهندية إلى المسلمين عن طريق الترجمة، لا سيما في الحساب وعلم النجوم وأسرار الطب، وأحسن دليل على ذلك أنّ الأرقام عرفها العرب عن الهنود ووصلت إلى الغرب عن طريقهم.

4. ترجمة الفلسفة اليونانية:

إن ترجمة عشرات كتب المنطق والفلسفة خلال العصر العباسي كانت من الأسباب الهامة للازدهار الفكري والعلمي ونمائه وتطوره، وقد جاء في "علم الكلام" (التافتازاني: 2013: 22) أستاذ الفلسفة الإسلامية

أنّ ترجمة الفلسفة كانت من العوامل التي أعانت على ازدهار علم الكلام وتحديد وسائله وتعميق مباحثه ودقة مناهجه. وساهمت في إطلاع المتكلمين من المسلمين على المنطق والفلسفة اليونانية.

ولا بدّ أن نذكر في هذا الباب أنّ السّريان كانوا معجبين بأرسطو، الذي فضّله النّسطوريون على أفلاطون الفيلسوف المفضّل لدى الكاثوليك، ولأنّ العرب اكتسبوا أول معرفتهم بالفلسفة اليونانية من السريان فقد رسخ في اعتقادهم أنّ أرسطو أكثر أهمية من أفلاطون (Russel: 1967: 421). وكان الكندي (ت 873م) أوّل من كتب الفلسفة باللغة العربية، وكان الفيلسوف الوحيد عربي العرق، وترجم أجزاء من إنيادة أفلوطين Enneads of Plotinus.

ومن الواضح أنّ أوّل ما نُقل إلى العربية هو المنطق، وذلك في عهد المنصور، ذلك أنّ النسطوريين كانوا متأثرين بمنطق أرسطو، وبلغ هذا التأثير المسلمين والعرب عن طريق الترجمة كون أهم المترجين كانوا من النساطرة.

وقيل إنّ ابن المقفع هو أول من ترجم المنطق إلى العربية، ولعل ذلك كان راجعا إلى حاجة المسلمين الملحة إليه، فقد كان المتكلمون مسلمين يرغبون في التسلح ضد خصومهم من أهل الديانات الأخرى، ممن كانت لهم دراية بالمنطق والفلسفة اليونانية.

وممن لمع نجمهم من المترجمين في مجال الفلسفة إسحاق بن حنين، الذي يقول عنه ابن النديم إنّه "في نجار أبيه في الفضل وصحة النقل من اليونانية والسريانية إلى العربية، وكان فصيحا بالعربية، يزيد على أبيه في ذلك، وخدم من خدمه أبوه من الخلفاء والرؤساء.

ويختلف إسحاق عن والده في أنه كان مولعا بالفلسفة فترجم كتاب النفس لأرسطو، وفي المجمل، فقد كان حنين ومدرسته كما يقول أحمد أمين في "ضحى الإسلام"(1933: 180) "خير من يمثل الثقافة اليونانية، وخير من قدم إلى قراء العربية نتائج القرائح اليونانية".

وهكذا اضطلعت مدرسة حنين بن إسحاق بنقل أهم كتب الفلسفة في الإلهيات والأخلاق والطبيعيات في عصر المأمون، فترجمت بعض كتب أفلاطون ككتاب السياسة، والمناسبات، والنواميس، وتيماوس، والحسّ واللذة، ومن بين ما ترجم من كتب أرسطو: كتاب النفس، والحس والمحسوس، والحروف أو الإلهيات، والأخلاق.

وقد بدأ هذا الاهتمام في مستهل عصر المأمون، وتعزو المصادر التاريخية هذا الاهتمام إلى حلم رأى فيه المأمون أرسطو وحاوره حوارا فلسفيا سُرّ به المأمون، ويروي ابن النديم (1994: 339) قصة هذا الحلم تحت عنوان: "ذكر السبب الذي من أجله كثُرت كتب الفلسفة وغيرها من العلوم القديمة في هذه البلاد".

إنّ ما نودّ تأكيده في هذا المقام، أنّ الاهتمام بترجمة الكتب الفلسفية ابتداء من عصر المأمون، كان خطوة طبيعية على طريق اتصال المسلمين بالتراث اليوناني، فعندما اطلع المسلمون على علوم اليونان، قادهم ذلك إلى نوع من التهيؤ الذهني الذي سمح لهم ببلوغ الدقة والتجريد الذي تميزت به الفسلفة اليونانية.

فكان من نتائج ذلك أن اصطنع المتكلمون المنطق الأرسطي أداة لهم، فمزجوا بين موضوعات العقيدة الإسلامية وموضوعات الفلسفة، ثم خاضوا بعد ذلك في مسائل أقرب إلى الفلسفة منها إلى العقيدة، ويقول الشهرستاني في "الملل والنحل": «ثم طالع بعد ذلك شيوخ المعتزلة كتب الفلاسفة حين فسرت أيام المأمون، فخلطت مناهجها بمناهج الكلام، وأفردتها فنًا من فنون العلم، وسمتها باسم الكلام". فعلى قوله يكون المعتزلة هم الذين سمّوا هذا العلم علم الكلام. وقد كان لهؤلاء الفضل الأكبر في تشجيع حركة الترجمة بغرض الدفاع عن الإسلام، لا سيّما وأنّ المأمون الخليفة العباسي نفسه كان معتزليا.

ولم يزل علم الكلام يقترب من الفلسفة شيئا فشيئا على أيدي المتكلمين حتى اختلطت مباحثهما وكاد لا يتميز علم الكلام عن الفلسفة لولا اشتماله على السمعيات على قول التفتازاني (1987: 25). وهكذا ازدهر علم الكلام وتجلى في صورته الفسلفية عند المسلمين حتى قال إرنست رينان– أحد المستشرقين الذين قالوا بعدم وجود فلسفة إسلامية بالمعنى الصحيح يقول: "أما الحركة الفلسفية الحقيقية في الإسلام فنلمسها عند فرق المتكلمين، وفي علم الكلام بشكل خاص".

5. موقف أهل السنة القدماء من علوم الأقدمين:

علوم الأوائل إسم أطلقه الإسلاميون على العلوم التي نفذت إلى الوعي والفكر الإسلامي بتأثير من المصنفات اليونانية في مختلف المجالات، في مقابل "علوم العرب" أو العلوم الشرعية على وجه التخصيص. وفي مقدمة "علوم الأوائل" هذه نجد الطبيعيات والرياضيات والفلسفة والموسيقى والطب وما إليها. وعلى الرغم ما لقيته هذه العلوم من عناية كبيرة وحث وتشجيع من الخلفاء العباسيين، إلاّ أنها كثيرا ما قوبلت بالتشكيك والريبة والرفض من طرف عدد كبير من أهل السنة المتشددين. فما أسهل أن يُتّهم رجل مثل علي بن عبيدة الريحاني، وهو

من خاصة المأمون، أو أبو زيد البلخي، بالزندقة لالشيء إلا لأنهما يتجهان في كتبهما اتجاها فلسفيا (ابن النديم: 1994: 173).

ورغم محاولة بعض الأئمة والمفسّرين القلائل التدليل على أنّ القرآن يحثّ على تعلم العلوم، فقد تمّ تهميش هذه الأصوات بسبب أئمة السلفية الذين لم يدخروا جهدا في نشر بعض الأحاديث النبوية التي تنهى عن تعاطي أي علوم من غير العلوم الشرعية والفقهية، فعلى المسلم الصالح على حدّ قولهم تجنب العلوم باعتبارها خطرا على الدين، ومن ثمّ لذّ للناس القول بأنّ النبي إنما عنى هذه العلوم في حديث "أعوذ بالله من دعاء لا يسمع، وعلم لا ينفع وقلب لا يخشع"، ونرى (الماوردي: 2013: 25) يحذر الناس صراحة من أن يعتبروا أقوال النبيّ التي يحث فيها على طلب العلم تتعلق بعلوم أخرى غير العلوم الشرعية، كما نرى انّ إبن تيمية (ت 1328م) في "مجموعة الرسائل الكبرى" (د.ت: 238/1) لا يريد أن يُفهم من من لفظ العلم إلاّ العلم الموروث عن النبي، فإنّ ما عداه إما أن يكون غير نافع، وإما ألاّ يكون علما مطلقا وإن سمّي بهذا الإسم.

والرأي الذي يقول به معتدلو أهل السنة والجماعة كما يلخصه الإمام الشاطبي (ت 1194م) في مصنفه "الموافقات" (د.ت: 26/1) أن الجدير وحده بالتحصيل من العلوم هو تلك العلوم التي تكون ضرورية ظاهرة النفع للأعمال الدينية، وما سوى ذلك فعديم الفائدة، إذ بينت التجربة أنه يؤدي إلى الحياد عن طريق الإيمان.

كما وصف أهل السّنة من الحنابلة والشافعية والأشاعرة أنّ علوم الأوائل علوم مهجورة وحكمة مشوبة بكفر، فكأنّ الاشتغال بهذه العلوم يسير جنبا إلى جنب مع الاستخفاف بقواعد الدين والشريعة. فكان هؤلاء يعزون كل انحراف عن الدين إلى الاحتكاك بعلوم الأوائل. فهذا تاج الدين السّبكي في "طبقات الشافعية" يرى أنّ السبب في قول الخليفة المأمون بخلق القرآن هو ما عرفه من علوم الأوائل. والغزالي لم يستطع أن يتحلل من ماضيه الفلسفي على الرغم مما له من أقوال تناقض ذلك (السّبكي: 1964: 218/1). فلا عجب إذن أن نرى واحدا من الحنابلة المتعصبين مثل الذهبي يقول في العلم الذي حصّله القاسم بن أحمد بن الموفق اللورقي (ت 1263م): "فيا ليته ترك الاشتغال بعلوم الأوائل، فما هي إلاّ مرض في الدين أو هلاك، فقلّ من نجا منهم" (السيوطي: 1964: 375).

وقد ورد عن السلف ذمّ أهل الكلام، كالإمام مالك إذ قال: "إياكم والبدع، قيل :يا أبا عبد الله! ما البدع؟ قال :أهل البدع الذين يتكلمون في أسماء الله وصفاته وكلامه وقدرته، ولا يسكتون عمّا سكت عنه الصحابة والتابعون لهم بإحسان". ثم قال عن صفات الله" :الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة ". كما روى عبد الرحمن بن مهدي عن الإمام مالك" :لو كان الكلام علماً لتكلم فيه أصحاب رسول الله ﷺ والتابعون لهم، كما تكلموا في الأحكام والشرائع " ولكنه باطل دل على باطله أنه تركه الصحابة والتابعون؛ لأنه باطل لا يستفاد منه. وقال الشافعي: "حكمي في أهل الكلام أن يُضربوا بالجريد ويحملوا على الإبل ويطاف بهم في العشائر والقبائل ويُنادى عليهم: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام" (ابن عبد البر: 1994: 441/2).

6. نكبة إبن رشد، أو نكبة العقل:

كما رأينا فيما سبق، فإنّ دخول علم الكلام مضمار العقيدة عن طريق الفلسفة، والتكلّم في صفات الله وقدرته وعلمه، والتطرق إلى إشكالية أزلية الكون والبحث في الأسباب والمسببات، وبعث الأجساد يوم القيامة، ومسألة خلق القرآن، لم يمرّ مرور الكرام على مجتمع أساسه المقومات الدينية، وفي مجتمع لطالما كان فيه لرجال الدين ثقل يمكن أن يقلب الموازين في أي لحظة بسبب تأثيرهم الكبير على العامة. ويبدو واضحا من خلال المصادر التاريخية أنّ ردة فعل الأئمة ورجال الدين وتحريضهم للعامة ضدّ أي نوع من أنواع التمدن والتفكير العقلاني تكون في الأغلب قاسية ودموية. وليس هذا حكرا على المسلمين، إذ أنّ سيطرة المعتقدات الدينية على العقل الجمعي، وارتباطها بفكرة القداسة والجنة والنار، تسهّل الانزلاق نحو العنف وردات الفعل الدموية، وقد حدث هذا في حضارات أخرى غير الحضارة الإسلامية، وتعتبر ردّة فعل رجال الدين والعامة من المسيحيين ونقمتهم على الفيلسوفة والرياضية والفلكية اللامعة هيباتيا السكندرية (350م- 415م)،التي سُحِلت ورُجمت وقُطّعت أطرافها وأُحرقت جثتها، دليلا تاريخيا قاطعا على أنّ التطرف الديني والخوف من إعمال العقل عادة ما يؤدي إلى أبشع الجرائم في حق الفكر والمفكرين. ليس هذا فقط بل أُحرقت مكتبة الإسكندرية، التي كانت تعتبر أكبر مكتبة آنذاك، إذ كانت تضم نفائس المخطوطات والمصنفات التي دمرت إلى الأبد، والتي كان من شأنها أن تختصر قرونا طويلة من البحث على البشرية.

إنّ لعنة التكفير التي سادت خلال القرن الخامس الميلادي في العالم المسيحي انتقلت بعد بضعة قرون إلى العالم الإسلامي، والملاحظ أنّ أي تطور علمي وفكري لا بدّ وأن تتبعه انتكاسة تعيد الأمور إلى سابق عهدها من

تخلف وانحطاط. وتماما كما كفّر المسيحيون المتطرفون هيباتيا ،كفرّ أئمة الحنابلة جميع الفلاسفة والمشتغلين بالعلم، فقال ابن القيّم في "إغاثة اللهفان"(1032/1) عن إبن سينا: "إنه إمام الملحدين الكافرين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر"، وعنه قال الكشميري في "فيض الباري" (166/1): "ابن سيناء الملحد الزنديق القرمطي". وقال ابن القيّم في "إغاثة اللهفان" (179/2) عن أبي بكر الرازي الطبيب والعالم والفيلسوف: "إنّ الرازي من المجوس"، و"إنّه ضال مضلل".. وقال ابن العماد في "شذرات الذهب" (353/2) عن الفارابي: "اتفق العلماء على كفر الفارابي وزندقته".

ولا غرو أنّ ذروة هذا التيار التكفيري ضدّ من حملوا راية العلم والفكر في الدولة العباسية في الشرق، والدولة الأموية في الأندلس تجسدت كلّها في أبي حامد الغزالي، الذي ألّف مصنفات قاسية وعنيفة جدا ضدّ التيارات الفلسفية في دولة الإسلام، رغم اشتغاله بالفلسفة لزمن طويل. إذ خصص فصلا كاملا في كتابه "المنقذ من الضلال" سماه "أصناف الفلاسفة وشمول سمة الكفر كافتهم"، وقد جاء في هذا الكتاب:"لا نشك في كفرهما أي الفارابي وابن سينا"، وقال فيه أيضا "وأما الآلهيات ففيها أكثر أغاليطهم وما قدروا على الوفاء بالرهان على ما شرطوا في المنطق ولذلك كثر الاختلاف بينهم فيه ولقد قرب مذهب أرسطاطاليس فيها من مذهب الإسلاميين الفارابي وابن سينا ولكن مجموع ما غلطوا فيه يرجع إلى عشرين أصلا يجب تكفيرهم في ثلاثة منها وتبديعهم في سبعة عشر ولإبطال مذهبهم في هذه المسائل العشرين صنفنا كتاب التهافت وأما المسائل الثلاث فقد خالفوا فيها كافة الإسلاميين وذلك قولهم أن الأجسام لا تحشر وأن المثاب والمعاقب هي الروح روحانية لا جسمانية ولقد صدقوا في إثبات الروحانية فإنها قائمة أيضا ولكن كذبوا في إنكار الجسمانية وكفروا بالشريعة فيما نطقوا به ومن ذلك قولهم إن الله يعلم علم الكليات دون الجزئيات وهذا أيضا كفر صريح بل الحق أنه لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ومن ذلك قولهم بقدم العالم وأزليته ولم يذهب أحد من المسلمين إلى شيء من هذه المسائل" (الغزالي: 2001: 182 وما يليها).

ولا شكّ أنّ كتاب "تهافت الفلاسفة" الذي صنفه الغزالي قبل "المنقذ" بسنوات، وقد بلغت الفلسفة الإسلامية ذروتها أو كادت على يدي الشيخ الرئيس ابن سينا، من أعتى ما كُتب في حق الفلاسفة، وقال بأنه هاله أنَّ المتفلسفين المسلمين، وبخاصة الفارابي وابن سينا، قد تركوا الدين اغترارًا بعقولهم، وتقليدًا للفلاسفة القدماء

كسقراط وأبقراط وأفلاطون وأرسطو؛ ولهذا فرض على نفسه الرد على هؤلاء وأولئك مُبينًا تهافت آرائهم وتناقضها فيما يتعلق بالإلهيات.

ولم يدّخر الإمام الغزالي جهدا من خلال "التهافت" برميهم بصفات الكفر والجهل والتقليد الأعمى وعمى البصيرة وغيرها من الصفات التي سعى من خلالها نزع الثقة عنهم وتنبيه من حسن اعتقادهم فيهم، ببيان وجوه تهافتهم، بعد أنّ رأى شدة أسر الفلسفة وذيوع اسم الفلاسفة وقوة أثرهم على العامة. ولهذا نراه وهو يُجادلهم يصفهم تنفيرًا للناس منهم، بأنَّهم أغبياء، زاغوا عن سبيل الله الحق، وبأنّ بعض نظرياتهم ظلمات فوق ظلمات، إلى نحو هذا من الصفات التي تُزري بمن اتصف بها، وتُنَفِّر الناس منه وتصرف عنه حتى من يثق به.

وكما كُتب للغزالي أن يشنَّ معركة شرسة ضد فلاسفة الإسلام، أو ضد الفارابي وابن سينا على وجه الخصوص، وأن يصير بذلك "حجة الإسلام"، فقد كُتب لابن رشد الذي ظهر بعده بقليل أن يهدم تهافته، وأن يصير بهذا نصير الفلسفة في الإسلام. ويفصح ابن رشد عن غرضه من كتابته «تهافت التهافت» في وضوح وإيجاز، فيفتتحه بقوله: "وبعد حمد الله الواجب، والصلاة على جميع رسله وأنبيائه، فإنَّ الغرض في هذا القول أن نُبين مراتب الأقاويل المثبتة في كتاب «التهافت» في التصديق والإقناع، وقصور أكثرها عن مرتبة اليقين والبرهان" (ابن رشد: 105:1998) وهو بذلك إنما حاول أن يردَّ عدوان الغزالي ويجعل حملته على الفلسفة باطلة، فينتصر بذلك للفلسفة في محاولة جريئة لإزالة الجفاء بينها وبين الشريعة ومحاولة التوفيق بينهما.

وقد تولى ابن رشد منصب القضاء في إشبيلية لمدة سنتين، ثم عاد إلى قرطبة، وتابع شروحه لكتابات أرسطو، ثم دعاه أبو يعقوب ليكون طبيبه الخاص بعد مرض أصابه، ثم ولاه وظيفة القضاء في قرطبة، ولما مات أبو يعقوب وخلفه أبو يوسف ابنه، الملقب بالمنصور زادت مكانة ابن رشد في دولة الموحدين، ومع ذلك كان يخشى على نفسه من طبقة الفقهاء الذين كانوا يريدون استعادة مكانتهم، وبالفعل نجحوا في الكيد له لدى الأمير، فأمر باعتقال ابن رشد ونفيه إلى قرية "أليسانة" التي يسكنها اليهود كإشارة إلى ألاّ مكانة له بين المسلمين، وأحرقت كتبه، وأصدر الأمير منشوراً ينهى المسلمين فيه عن قراءة كتب الفلسفة، وهدد من يخالف أمره بأشدّ العقوبات. ورغم أنّ آراء المؤرخين في تفسير المحنة التي نزلت بابن رشد في أواخر حياته، فأرجعها بعضهم إلى غضب الأمير من طريقته في الحديث إذ كان يلقبه بـ "أمير البربر"، وعزا بعضهم محنته إلى ميله إلى حاكم قرطبة وكان أخاً للمنصور وكانت له عين على كرسي الحكم. إلاّ أنّ التمحيص فيما سبق وما تلا من أحداث تاريخية لا يدع مجالا للشك أنّ كيد الفقهاء وعداءهم للفلاسفة والمشتغلين بالعلم معلوم وموثق في أغلب المصادر الفقهية والتاريخية على مرّ قرون

عديدة. فقد كفّر الكندي والفارابي والرازي وابن سينا والخوارزمي وابن الهيثم وأغلب الأسماء التي لمع نجمها في سماء بغداد والأندلس، وقتل الكثير منهم، وأحرقت كتبهم، ومن لم يقتل عاش منبوذا في عزلة لما تبقى من حياته.

ومهما كانت الأسباب فنكبة ابن رشد كانت من نوع خاص، فهي محاكمة للفكر وإعمال العقل بسلاح الدين والعقائد، فأفتى أئمة السلفية على مذاهبهم بأنّ "من تفلسف فقد تنزندق"، وربطوا الفلسفة بالمفاسد والكفر والهرطقة، وجعلوا تدريسها أمرًا محرّمًا، من بعد ذلك انتقلت فلسفة ابن رشد إلى أوروبا، عن طريق جامعة بادوفا التي درّست ما يعرف **بالفلسفة الرشدية اللاتينية**، ودرس فيها معظم من مهدوا لعصر التنوير كليوناردو دافنشي، كوبرنيكوس، وغاليليو، وبذلك انتقل شعاع التنوير من بغداد إلى أوروبا التي تبنّت الفلسفة الرشدية وجعلتها أساسها الحضاري الذي تنطلق منه.

7. الخاتمة:

تلخص نكبة إبن رشد نكبة العقل العربي والمسلم منذ انهيار بغداد وسقوط الأندلس واجتياح الفكر المتطرف لبلاد الإسلام. وقد ألقت هذه النكبة بضلالها على كلّ المجتمعات العربية والإسلامية، فبعد أن عاشت الحضارة الإسلامية أزهى وأرقى عصورها خلال العصر العباسي الأول، وذلك بفضل الوعي والفضول العلمي والنضوج الفكري الذي كان يتمتع به معظم الخلفاء العباسيين، وبفضل تفتحهم على الشعوب الأخرى وعلومها، وكذا بفضل بناء المدارس والمكتبات وتبني مشاريع ترجمة ضخمة شكلت الركيزة الأساسية التي نهضت بالدولة العباسية، فإنّ أئمة التكفير قضوا على قرون من الازدهار بتعصبهم وضيق أفقهم، فكفروا العلماء والشعراء والفلاسفة ورموهم بالزندقة والمروق عن الدين، وألبوا الحكّام والعامّة ضدهم حتى لا تقوم لهم قائمة بعد ذلك.

إنّ العلوم والفنون والفلسفة بأشكالها اندحرت وصارت من المحرمات في البلاد الإسلامية كنتيجة لهذا الفكر التكفيري الذي ترسخ في العقل الجمعي العربي والمسلم، وتقدم الغرب الذي أخذ بفلسفة ابن رشد وترجم مصنفات ابن سينا في الطب وكتب ابن الهثيم في البصريات ونهل العلوم من أمهات الكتب التي نقلها المسلمون إلى العربية خلال العصر الذهبي. ورغم أنّ الإمام أبي حامد الغزالي ضرب الفلاسفة في مقتل من خلال تشنيعه لهم وما كتبه عنهم من خلال تأليب العامة لدرجة أن لامه ابن رشد لإباحتة الفلسفة للعامة وهي العلم الذي يستعصي إلاّ على أصحاب العقول، فإنّ شيخ الإسلام ابن تيمية الذي عايش سقوط بغداد على يد هولاكو واجتياح المغول

لعاصمة المسلمين وما عاثوا فيها من تقتيل وتدمير، بالغ في تكفير خلق كثير وكان بمثابة من يدق آخر مسمار في نعش الحضارة الإسلامية التي ازدهرت بفضل التفتح والعلم والترجمة.

ونحن إذ تحدثنا في هذا المقال عمّا اكتسبته الحضارة الإسلامية من خلال التفتح على الآخر ونقل علوم الأقدمين وإتاحة باب العلم لطالبيه، وعما خسرته عندما اشتدت وطأة المتشددين وشدة عداوتهم للعلم والعلوم، فإننا تطرقنا إلى الموضوع من وجهة نظر فكرية بحتة، دون التطرق إلى الأسباب التاريخية والسياسية والمذهبية التي أدت في النهاية إلى سقوط بغداد على يد المغول، التي لا تقع في إطار هذا البحث.

وفي ختام كلامنا فلنتذكر ما قاله ابن رشد لأحد طلابه الذي بكى بحرقة عند إحراق كتب الفيلسوف فقال:"يا بني.. لو كنت تبكي على الكتب المحترقة فاعلم أنّ للأفكار أجنحة وهي تطير بها إلى أصحابها، لكن لو كنت تبكي على حال العرب المسلمين فاعلم أنك لو حولت بحار العالم لدموع لن تكفيك".

المصادر والمراجع:

ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم، (1997)، *عيون الأنباء في طبقات الأطباء*، تحقيق ودراسة عامر النجار، ج1، دار المعارف، القاهرة،

ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام النميري الحراني، (د.ت)، *مجموعة الرسائل الكبرى*، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

ابن رشد، أبو الوليد مُحَمَّد بن أحمد بن مُحَمَّد الأندلسي المالكي، (1998)، *تهافت التهافت*، شرح وتعليق مُحَمَّد عابد الجابري، ط2، مركز الدراسات العربية، بيروت.

ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن مُحَمَّد بن عاصم النمري القرطبي، (1994)، *جامع بيان العلم وفضله*، تحقيق أبو الاشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، الدمام.

ابن العماد، شهاب الدين أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد بن مُحَمَّد العكري الحنبلي، (1976)، *شذرات الذهب في أخبار من ذهب*، حققه وعلق عليه محمود الأرناؤوط، ط1، دار ابن كثير دمشق-بيروت.

ابن القيم الجوزية، أبو عبد الله مُحَمَّد بن أب بكر بن أيوب، (1432هـ) ، *إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان*، حققه مُحَمَّد عزيز شمس ومضطفى بن سعيد إيتيم، ط1، دار علم الفوئد، مكة المكرمة.

ابن النديم، أبو الفرج أحمد بن إسحاق، (1994)، *الفهرست*، ط1، دار المعرفة ، بيروت.

أحمد أمين، *ضحى الإسلام*، (1933)، ط1، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

التفتازاني، سعد الدين، (1987) *شرح العقائد النسفية*، تحقيق أحمد حجازي السقا، ط1، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة.

دي لاسي، أوليري، (2002)، *مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب*، ترجمة تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة.

الذهبي، أبو عبد الله شمس الدين مُحَمَّد بن أحمد بن عثمان، (2004)، بيت الأفكار الدولية، لبنان.

رشى عيسى فارس، (2017)، *الورق في العصر العباسي*، جامعة بغداد/ مركز إحياء التراث العلمي العربي، الجامعة المستنصرية – مجلة كلية التربية، العدد الثاني.

زقزوق محمود حمدي وآخرون، (2003)، *الموسوعة الإسلامية العامة*، القاهرة.

السّبكي، أبو نصرتاج الدين عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي، (1964)، طبقات الشافعية الكبرى،تحقيق محمود مُحَمَّد الطناحي – عبد الفتاح الحلو، ط1، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن مُحَمَّد بن سابق الدين الخضيري، (1964)، *بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة*، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة.

الشاطبي،إبراهيم بن موسى بن مُحَمَّد اللخمي الشاطبي الغرناطي أبو إسحاق، (د.ت)، *الموافقات*، دار ابن عفّان.

شوقي ضيف، (1983)، *الفن ومذاهبه في النثر العربي*، ط 10، دار المعارف، القاهرة.

الشهرستاني، أحمد أبو الفتح مُحَمَّد بن عبد الكريم بن أبي بكر، (1993)، *الملل والنحل*، تحقيق أمير علي مهنا وعلي حسن فاعود، ط3، دار المعرفة، بيروت.

الغزالي، أبو حامد، (1966)، *تهافت الفلاسفة*، تحقيق سليمان دنيا، ط4، دار المعارف، القاهرة.

الغزالي، أبو حامد، (2013)، *معيار العلم في المنطق*، شرحه أحمد شمس الدين، ط 2، دار الكتب العلمية، بيروت.

القفطي، الوزير جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف، (2005)، *إخبار العلماء بأخبار الحكماء*،علّق عليه ووضع حاشيته إبراهيم شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت.

الكشميري، مُحَمَّد أنور، (2005)، *فيض الباري على صحيح البخاري*، حاشية البدر الساري، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت.

الماوردي، علي مُحَمَّد بن حبيب أبو الحسن، (2013)، *أدب الدين والدنيا*، ط1، دار المنهاج، بيروت.

مايرهوف، ماكس، 1946، "من الاسكندرية إلى بغداد" في *"التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية، دراسات لكبار المستشرقين"* لعبد الرحمان بدوي، ط2، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي شهاب الدين أبو عبد الله، (1993)، *معجم البلدان*، ج2،بيروت.

المراجع باللغات الأجنبيه:

Backer, Mona,(2009), The Routledge Encyclopedia of Translation Studies. (second edition). London : Routledge.

Baker, Mona, In Other Words. (2011),A coursebook on translation. (Second edition.) London: Routledge.
David. A. King, (1999), *Islamic Astronnomy*, *In* Walker, C. Astronomy Before the Telescope. British Museum Press.
Montgomery, Scott. L,(2018), Mobilities of Science: The Era of Translation into Arabic. *Isis*, *109* (2), 313–319. https://doi.org/10.1086/698236.
Ostrogorsky, George, (1957), History of the Byzantine State, Translated by Joan Hussey. Rutgers University Press (New Brunswick. New Jersey).
Peters, Francis E, (1968) *Aristotle And The Arabs*. New York Univ Press.
Rosenthal, Franz, (2003), The Classical Heritage in Islam, translated from German by Emile and Jenny Marmorstein, Routledge, London and New York.
Russell, Bertrand,(1967), History of western philosophy, New York.
Sabra, Abdelhamid. I, (1987), "The Appropriation and Subsequent Naturalization of Greek Science in Medieval Islam: A Preliminary Statement." *History of Science*, vol. 25o. 3, Sept. 1987, pp. 223–243,

المراجع الالكترونية:

كونيتش، بول، "الترجمات العربية لكتاب المجسطي لبطليموس"، مكتبة قطر الرقمية، **https://www.qdl.qa**، **اطلع عليه في 27 أوت 2022**.

Marzolph, Ulrich, « Arabian Nights », in Encyclopaedia of Islam, THREE, Edited by Kate Fleet, Gundrun Kramer, Denis Matringe, John Nawas, Everett Rowson. https://uni-goettingen.de/de/document/download/817542bd34eb45880e996de85bb6c369.pdf/THE%20ENCYCLOPAEDIA%20OF%20ISLAM%20THREE.pdf, Consulted online on 02nd August 2022.

الهوامش:

[1]Marzolph, Ulrich, "Arabian Nights", in: *Encyclopaedia of Islam, THREE*, Edited by: Kate Fleet, Gudrun Krämer, Denis Matringe, John Nawas, Everett Rowson. Consulted online on 02 August 2022